

مع دانتي في الكوميديا

للدكتور حامد طاهر

في أعماق غابة مظلمة ، يكتشف مسافر أنه قد ضلّ الطريق . الدنيا ليل ، وبينما القلب مأخوذ بالخوف والقلق ، ينتهي به الحال إلى الوصول إلى أسفل ربوة تنعكس على قممها خيوط الفجر الأولى .. بالنسبة إليه ، هذا هو المخرج .

خطوات المسافرين مرهقة ، وأنفاسه متقطعة . ومن وقت لآخر ، يلتفت في دعر إلى الخلف ناحية المظلمات التي تخلص منها ، ثم يعاود الصعود من جديد في اتجاه القمة .

وفجأة ، يبرز من خلف أحد المنتوءات قط برى مرقش ، فيقطع عليه الطريق. لكن اللحظة توحى بالثقة . فالنهار أخذ في الانتشار ، غير أن حيوانا مفترسا آخر يظهر : أسد يتضور جوعا ، وبعده مباشرة تندفع ذئبة بشعة ، فتدفع الرجل إلى الهاوية التي كان قد خرج منها .. هذه المرة لم يعد هناك أمل !

في تلك اللحظة ، يتمثل أمامه شخص غريب . وهنا يصيح المسافرين فيه بكل يأس: " كنْ من شئت . خيالاً أم انسانا ، لكن ارحمنى ". وبصوت يكاد يكون همسا ، يجيب الشخص الغريب : " أنا لم أعد انسانا .. "

إنه ظل فرجيل- الشاعر اللاتيني الشهير ، صاحب الإلياذة ، والمتوفى سنة 19 قبل الميلاد - الذي يتكلم .. ويواصل : " للخروج من هذا

المكان الموحش ، لابد من سلوك طريق آخر .. اتبعني وسوف أقودك عبر الأماكن الخالدة ، حيث يبكي أناس ، ويأمل آخرون .. لكنك إذا أردت الذهاب إلى أعلى من ذلك فإن هناك روحا أخرى ، أشرف مني ، سوف تأخذ مكانى إلى جانبك " .

ثم يستدير الاثنان مخلفيْن الريحه ، التى كانت تبدو قريبة للغاية ، هابطين في اتجاه الهاوية . وهنا يسقط المساء على ذلك النهار الذى لا يُنسى . يوم الجمعة المقدسة ، الثامن من إبريل ، سنة 1200 ميلادية .

هكذا يبدو المشهد الأول من افتتاحية الكوميديا الإلهية . والبطل نفسه هو الراوى . لكن ماذا تعنى المغامرة ؟ ومن هو ذلك الرجل المسافر ؟ ان اسمه لا يظهر إلا مرة واحدة طوال تلك الملحمة الشعرية التى تبلغ (14) ألف بيت ، مقسمة إلى مائة نشيد ، وفى بناء عروضى محكم للغاية .

وتجدر الإشارة إلى أن وصف الكوميديا بأنها "إلهية" ليس من عمل دانتي ، وإنما يرجع إلى إعجاب المشرّاح الأول ، وخاصة بوكاس Boccace ، وكذلك إلى محتوى العمل نفسه .

أما الكوميديا كشكل فني ، فقد كانت تمثل لدانتي أسلوباً وسطاً يقع بين طرفين : الأول أسلوب المأساة النبيل ، مثل إلياذة فرجيل ، والثاني أسلوب المراثي المتواضع .

ولد دانتي سنة 1265 في فلورنسا ، أنشط المدن الإيطالية في العصور الوسطى ، بفضل تجارتها المزدهرة ، وكفاءة عمالها المهرة ، وسمعة عملتها الذهبية ، التي كانت محترمة في أوروبا كلها ، حيث كانت تمثل عاصمة الغرب المالية .

ولما شك أن هذه الثروة قد عبرت عن نفسها في عدد وفير من الآثار المعمارية البالغة الروعة ، مثل كنائس سانت ماريا ، وحصن باليزو ..

هكذا إجتمع المازدهار - الماقتصادى مع المازدهار المعماري ، ويبدو أن كلا منهما ، كان ينبغي أن يؤدي إلى السعادة . لكن مع الأسف : تحت أقدام الثروة انتشرت في فلورنسا الاضطرابات السياسية والاجتماعية . وهذا ما يفسر حالة الفقر والعوز التي عانى منها دانتي .

ولبيان ذلك ، يمكن أن نستحضر من ملامح هذاالعصر : الذى تميز بسباق الثروة ، والذى تنتصر فيه الطبقة البرجوازية التى يتكون منها رجال الأعمال وأصحاب المبانى على حساب نبلاء الأراضى الزراعية أو الاقطاعيين . وقد اضطرت الظروف هؤلاء الأخيرين إلى مغادرتهم قصورهم الفاخرة ، التى كانت مطلة على وادى نهر Arno ، والمجئ للسكنى فى المدينة ، حاملين معهم سخطهم على ذلك الوضع الجديد .. أما الشعب المكادح فقد انحاز إلى طبقة البرجوازيين ضد طبقة النبلاء ، لكنه فى المقابل راح يطالبهم بإصلاح المؤسسات مع المقدّر الملائم من الديمقراطية .

ولما تكتمل الخلفية الاجتماعية لمدينة فلورنسا فى ذلك الوقت إلما باستحضار الصراع التقليدى الذى كان مشغلا بين الإمبراطورية والبابوية ، ومحاولة كلا الطرفين الاستئثار بالسيطرة لصالحه .

وإذن فقد كان الصراع على أشده في تلك الفترة التي سبقت مولد دانتي وعلى الرغم من وجود لحظات من السلام المؤقت ، فقد كان دائما معرضا للانفجار. وهكذا يمكن القول بأنه كان زمانا صعبا . والغد مشكوك فيه . وربما كان هذا هو المستنقع المظلم الذي أربع صاحبا " المسافر " في رحلته الخالدة !

لكن في سنة 1280 ، أصبح في الإمكان تحقيق قدر من التصالح بين الأطراف المتصارعة . يشهد على ذلك تنظيم بعض الأعياد الشعبية التي شارك فيها الصغير دانتي (وعمره حينئذ 15 عاما) وقد كان عليه قبل أن يحكم على هذا العالم ، أن يختار نصيبه منه .

ان ما نعلم عن دانتي ضئيل . ويبدو أنه منحدر من أسرة برجوازية كانت قد تدهورت بها الحال ، فأصبحت فقيرة . وهو لا يذكر كلمة واحدة عن أبيه .

الذي يبدو أنه تزوج من امرأة أخرى قبل وفاته . والخلاصة أن الوسط العائلي لم يكن مبتسما لدانتي . لكنه كان يحس بمتعة الدراسة

، والمصدقة . أما حبه الأساسي فقد انقسم بين مجالين : حب الشعر ، وحب تلك الفتاة الملائكية :

بياتريس ، الذي كان يقول عنها : " أتمنى أن أكتب فيها ما لم يكتبه شاعر قط في فتاة .." والواقع أنه صدق في ذلك ، فقد كتب فيها أجمل أشعاره .

كان دانتي يرى بياتريس في شوارع فلورنسا المضيقة ، فتبتسم له ، وتلقى له بتحية وادعة تقذفه في عالم من الوجد والأحلام . لكن الموت لم يلبث أن اختطفها وهي في عمر الزهور (24 سنة) فجمع دانتي أشعاره التي كتبها فيها ، وعلق عليها نثرا في كتيب ذي دلالة واضحة أطلق عليها عنوان "الحياة الجديدة Vita Nova ، الذي يعلن فيه عن ميلاد عمله الكبير : الكوميديا ، الذي سيخلد اسمه في تاريخ الأدب العالمي .

فهل يمكن القول بأن حب دانتي لبياتريس كان حبا عاديا ، أو عابرا ، أم أنه كان من ذلك النوع العميق المتجذر في أنحاء النفس والروح . ولذا أكد هذا الحب ، راح دانتي يعمل بكل قواه الشعرية على استمراره كوهج يضئ له حياته كلها ، بل إنه حاول أن يتغلب على المدى الذي طوى صفحة حبيبته المادية لكي يقيم من روحها تمثالا ينبض بالحياة ، ويأخذ بيده للنجاة من براثن كل الصعاب التي

أحاطت به .

في خاتمة كتاب (الحياة الجديدة) يؤكد دانتي أن نظرة بياتريس كانت كافية لتحافظ عليه من كل الشرور أو الصعاب التي واجهته . يقول على لسانها :

- إنني أدعمه بنظراتي

وأقوده معي في الطريق المستقيم .

وهو يعترف في بعض لحظات الضعف التي تعرض لها ، وهي ليست معه :

- الأشياء الحاضرة ، وامتعتها الزائفة أضلت خطواتي

منذ أن اختفى وجهك من أمامي

ومما يلاحظ هنا أن المسألة هنا تكاد تتعلق بعقيدة دينية (الطريق المستقيم.. أضلت خطواتي)، وهو الأمر الذي رفع من هذا الحب الذي بدأ بشريا لكي يصبح علويا، ترفض أجنحته في عالم آخر غير هذا العالم الدنيوي!

لكن هل استطاع دانتي أن يواصل حياته كلها متغنيا بحبه الخالد لبياتريس، الواقع أنه حاول التعويض عن هذا الظمأ العاطفي بالانغماس في أمرين كلاهما صعب. الأول هو انشغاله بالفلسفة أي بالعلوم المدنية، وكانت حينئذ أرضا خطيرة، وملئمة بالغام العصور الوسطى التي سيطرت عليها سلطة الكنيسة ومحرماتها. والأمر الثاني هو الاشتغال بأنشطة ذات طابع سياسي ومنها تسجيل في نقابة الأطباء والمصايدلة (وكان في فلورنسا 12 نقابة مهنية، لا يحق لأي إنسان أن يمارس السياسة دون أن يسجل اسمه في واحدة منها).

وباشتراكه في تلك النقابة أصبح عضوا في أحد الحزبين المتصارعين، وتم انتخابه عن طريق القرعة في مجلس المائة، ومنه إلى منصب هام في القضاء العالي. وهي وظيفة لم يمارسها سوى شهرين فقط (يوليو وأغسطس سنة 1300) والسبب أنه سافر في نفس العام عضوا في وفد لمقابلة البابا في روما، بهدف تخفيف غضبه عن الحزب الذي ينتمي إليه، لكن حكما قضائيا صدر ضده بغرامة لم يسرع بدفعها، فحكم عليه بالإعدام حرقا، لكنه مثل آخرين من قبله اختار طريق المنفى..

وهكذا أضيفت إلى تجربة المشاعر العاشق ، المرهف الحس ، تجارب أخرى عقلية وحياتية جعلته أكثر نضجا ، وراحت نظرتة إلى العالم ككل تتسع من مجرد دائرة حبه الشخصى العميق ، إلى محيط العالم الإنسانى .. الإلهى الكبير ، الذى يتجاوز حدود تلك الحياة الدنيا .. إلى مآلات الحياة الآخرة !

متابعة الرحلة في الكوميديا :

وصل الشاعران (دانتي وفرجيل) إلى المحفرة ، التى أحدثها الشيطان عند سقوطه ، وذلك بعد معاناة هائلة أثناء عبورهما ، فوجدا فوهات تنتظم فى دوائر متتالية (تسع دوائر) وتجمع كل منها الذين اشتركوا فى اقتراف ذنب معين . ويلاحظ أنه كلما كانت الدائرة فى أسفل الدرك ، كان الذنب أكبر ، والعقاب بالتالى أشد .

وحتى يمكننا من تكوين فكرة واضحة عن البناء الأساسى للكوميديا كما وضعها دانتي ، يستحسن أن نتابع معا هذا المختصر :

- الغابة المظلمة التى ضلَّ فيها المسافرين .

- مقابلة الحيوانات الثلاثة المتوحشة : القط البري ، والأسد ، والذئبة .

- المسقوط في الهاوية ، ولقاء شبح فرجيل الذي سوف يقوده كدليل .

- المرور على دهليز خارج الجحيم ،

حيث يوجد الجبناء ، غير المرغوب فيهم ، والمرموزين أيضا من الجنة .

وهم في حالة هروب دائم من لسع الحشرات التي تطاردهم دون توقف .

- الدوائر التسع ، ويتدرج فيها العذاب ، بحيث يشتد كلما هبطنا :

الدائرة الأولى : وتضم الأطفال الذين ماتوا دون تعميد

والعادلين الذين عاشوا قبل مجئ المسيح .

الدائرة الثانية : الضَّجَّار .

الدائرة الثالثة : الأَكُولين .

الدائرة الرابعة : البخلاء والمسرفين .

الدائرة الخامسة : الفضوليين .

الدائرة السادسة : المبتدعين .

الدائرة السابعة : الذين كانوا عنيددين في معاملة (الجار ، أنفسهم ، الله والطبيعة)

الدائرة الثامنة : المزورين .

الدائرة التاسعة : الخونة (لأقاربهم ، لوطنهم ، مضيفهم ، أصحاب معروفهم).

ثم في الأعماق ،عقب الخونة مباشرة ، يوجد الشيطان ، بوجوهه الثلاثة : يهوذا ، الذي خان المسيح ، برييتيس وكاسيس اللذين خانا قيصر روما القديم .

بعد ذلك ، تبدأ مرحلة الصعود من قاع الجحيم ، ذاحية المطهر ، وهو عبارة عن جبل عال يرتفع في وسط المحيط الجنوبي ، بعيدا عن كل الأحياء ، في مواجهة مدينة القدس (أورشليم) .. وهنا يسكن أولئك الذين يتلذذون بعذاب النار ، لأنهم يعيشون على أمل أن يأتي يوم يخرجون منها ، ويعبرون أخيرا مع السعداء في سعادة أبدية .

ويلاحظ أن الرحلة تبدأ في تلك اللحظة تأخذ اتجاهها صاعدا ، ومن الطبيعي أن يخف العذاب كلما صعدنا إلى الأعلى . لكن قبل البداية ، نلتقى على شاطئ الجزيرة بالتائبين الذين ماتوا دون أن تقبل قرايبتهم . ثم تصعد بعد ذلك مصطبتين واسعتين :

المصطبة الأولى وتضم الذين تابوا في وقت متأخر من العمر .

والمصطبة الثانية تضم الأمراء العابثين ، والمغتربين الذين ماتوا نتيجة موت عنيف .

ثم يظهر باب المطهر ، وبعده تتوالى سبع شرفات ضخمة :

الشرفة الأولى وتضم المزهويين .

الشرفة الثانية وتضم الحساد .

الشرفة الثالثة وتضم الغضوبين .

المشرفة الرابعة وتضم المهملين والكسالى .

المشرفة الخامسة وتضم البخلاء والمسرفين .

المشرفة السادسة وتضم الأكوليين .

المشرفة السابعة وتضم المضجار .

وننتقل بعد ذلك إلى " الجنة الأرضية " وفيها يتم "اعتراف دانتي " وتظهر مليكة أفكاره بياتريس ، التي سوف تقوده - بدلاً من فرجيل الذي يختفى حينئذ - إلى السماوات التسع التالية :

السماء الأولى : مسكن الذين لم يتمكنوا أن يوفوا بنذورهم .

السماء الثانية : مسكن النفوس المولعة بالمجد .

السماء الثالثة : مسكن النفوس التي أولعت بالحب .

السماء الرابعة : مسكن الحكماء والفقهاء .

السماء الخامسة : مسكن المدافعين عن العقيدة .

السماء السادسة : مسكن النفوس المولعة بالعدالة .

السماء السابعة : مسكن المتأمل .

السماء الثامنة : وفيها يجرى انتصار المسيح ، وموكب السعداء ، وتمجيد العذراء.

السماء التاسعة : مسكن الملائكة .

ثم بعد ذلك ، نجد "الوردة الإلهية " وفيها يسكن أسعد السعداء ، الذين يتمتعوا بالنظر إلى الحضرة الإلهية .. وهنا تختفى بياتريس ليحل محلها القديس برنار ، الذي يصحب دانتي إلى حيث يحظى بغاية الغايات ، وهي : رؤية الله .

ومن الواضح أن كثيرا من عناصر هذا البناء الملحمي ترجع إلى مصادر إسلامية ، وتأتي في مقدمتها : قصة معراج الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ويرجع الفضل في ذلك إلى المستشرق الأسباني الكبير آسين بلاثيوس الذي وجه أنظار العالم كله إلى علاقة القريبى الوثيقة بين كوميديا دانتي وفلسفة محيي الدين بن عربي . وقدحدث ذلك في عام 1929 . ويمكننى أن أضيف هنا إلى أن بعض

مخططات الحكيم الترمذى تكاد تتطابق مع بعض أفكار الكوميديا .

لكن مسألة المصادر الإسلامية ينبغي ألا تجعلنا نتغاضى عن عبقرية دانتي في حشد وتطعيم ملحمة الضخمة بتلك المتفعيلات والمشاهد الأخروية ، وكذلك بالمفاجآت غير المتوقعة التي تستمر في إدهاش المتلقى ، كلما انتقل من جزء إلى جزء آخر .

ومن المناحية الروائية الخالصة ، لابد أن نعترف لدانتي بأنه كان سابقا لعصره ، بل ومحلقا عليه ، حيث استطاع أن يأخذ بتلابيب القارئ وهو يتابع تفاصيل لا تكاد تفترق عن روايات الرعب المنتشرة في عصرنا الحاضر ، ومنها على سبيل المثال : مشهد دانتي وصاحبه المهادئ فرجيل أمام جدران مدينة الشيطان التي تزمجر حولها الشياطين ، وتعوى النساء ! وكذلك مشهد أولئك الغضوبين الذين يعرض بعضهم بعضا وهم يتخبطون في أوجال نهر

Styx

، أو مشهد الفجار الذين يتطايرون كأوراق الشجر الميتة تحت دفع الريح الخالدة (رمزا للهوى الذي لم يستطيعوا مقاومته) أو مشهد أوجولان الذي يقضم رأس جلاده القديم !

وإلى جانب ذلك ، هناك بعض القصص المؤثرة ، مثل تلك التي ترويها لدانتي فرانسواز ريميني ، ابنة حاكم رافينس ، الذي زوجها أبوها من جيانسيتو ، لكن الزوج كان قبيح المنظر ، وأعرج ، ومشوها ، ونحيفا .. أما أخوه الأصغر باولو فقد كان وسيما ، لذلك بادلته زوجة أخيه الإعجاب . وذات يوم ، فاجأهما الزوج وهما يقرآن في كتاب حب ، فلم يتردد في قتلتهما بضربة سيف واحدة ، اخترقت جسديهما معا .. ومن العجيب أنه حتى في الجحيم ، لم ينفصل العاشقان البائسان أحدهما عن الآخر . يقول دانتي :

" وبينما نفس فرانسواز تحكي القصة هكذا ، كانت نفس عشيقها تبكي بمرارة أثرت في قلبي إلى حد الموت ، فسقطت مغشيا على كجسد ميت " .

وأستطيع القول إن دانتي كان واعيا بأن عمله في الكوميديا يتجاوز نطاق المحلية ليصبح عملاً عالمياً بامتياز . فهو لم يتردد أبداً في الاستمداد من الأساطير القديمة ، وشخص أبطالها وأميراتها ، ولما من التاريخ الدامي الذي مر بالإنسانية خلال عصورها السالفة ، ولما من الحضارة الإسلامية التي كانت مصدر إشعاع للغرب من عدة قرون ، فقد أورد منها أسماء الفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، شارح أرسطو الكبير ، كذلك فإنه استمد الكثير من مشاهداته في عصره الذي كان يموج بالمصراعات السياسية والاجتماعية ، وتتعارض فيه الطبقات ، ويقفز إلى السلطة والمكاسب معظم الأفاقيين والمنافقين .. ويكفي بعد ذلك كله .. أن دانتي قد أخذ عصره كله من واقعه المحزن إلى أجواء الحياة الأخرى ، والتي يكاد الناس في غمرة صراهم الدنيوي المحموم يتناسونها أو يهملون وجودها . وأخيراً فإن اختيار دانتي لكتابة ملحمة باللغة الإيطالية - مفضلاً إياها على اللاتينية القديمة - كانت نقطة تحول في ترسيخ أو بالأحرى في إنشاء الاعتبار لهذه اللغة ، التي أصبحت فيما بعد - وحتى اليوم - هي لغة الشعب الإيطالي كله .

